

# بيكولوجية النقد والناقد

بقلم علي زيعور

له تلك التجارب والمواقف وذلك اللاشعور والثقافة والمفهوم ؟ طبعا ليس الانسان سجين ذاتيته ، انما الذاتية المقبولة في النقد هي تلك التي ارتضاها العقل وقبلها ، وهي في الاساس محبة وتعاطف ، فتلك هي فضيلة عملية النقد اليوم والقيمة التي على الناقد تحقيقها وتجسيدها في اعماله .

اما الناقد فانه يبدأ عمله مدفوعا بتوتر داخلي يشأ من ارادة الوصول الى الهدف الذي هو التقييم فتصادفها صعوبات الفهم وعقبات الشرح التي تعطي التوتر اندفاعه او وهنه حسب فئته . وللتخلص من هذه الحالة النفسية يبدأ البحث والتقصي . هنا اي في العقبات المذكورة يكمن سبب العشوائية الظاهرة في اعمال الكثيرين من النقاد ، فافعالهم مع شدة التوتر والقلق الناتج كما رأينا من صعوبة الفهم والشرح ، يدفعهم للبحث عن مفرج ، عن قشة يتمسكون بها لهجمة المؤلف او تكرار نقد قطعه فيأولسون ويشوهون ويفهمون على فلسفتهم .

لذلك صرح قول سارتر : « انني ما اقله » . والناقد هو من يتجسد منه في مهاجمته لتلك الناحية دون تلك والانغصاء عن نقطة ومدح اخرى ، فتبدو نفسيته بجلاء . وقد تنحفي احيانا الا ان مشاغله بصورة عامة توجه سيره النقدي لا شعوريا او بتفكير ونية مدروسة . فينسب الاثر الكتابي الى دوافع عالية ويعطيه المعاني الاخلاقية السامية او يشرح فكرة ممتازة بنتيجة مصادفة او سبب بيولوجي مثلا او اخر منحط ...

والناقد امام النص كانه امام صاحب هذا النص شخصا ، فاما ان يرى نفسه فوق المؤلف واما على مستواه او دونه اللهم الا اللامبالاة التي يكذبها الحق والواقع . فمن ارادة الاول بمحاكمة انتاج الثاني يتولد شيء من التباعد وتعيين مستويين غير متساويين ، هذه الفجوة التي يسعى الناقد لاجتيازها لا بد ان يكون ردمها على حساب واحد من المتبارزين . فاذا رأى الناقد ضعفه تجنى محاولا التسوييف اللاشعوري ، اما اذا لاحظ ضعف خصمه امام قوته سعى لظهور الحالتين بالتمسك بخناق الخصم او الشفقة عليه .

لكن القضية ليست قضية عراق ومدافعة عن النفس فقط . ان امكانية الاخلاق والمحبة اقوى او هي الوجه الثاني لنفس العملية . لقد قال باسكال بقيم القلب ، ثم كررها واوضحها ماكس شيلر والجناح الوجودي المؤمن ، وهكذا فالقول بضرورة هيمنة التعاطف والمحبة على العمل النقدي للوصول الى نتيجة بناء هو الواجب او هو المناقبة ( الايتيك ) Ethique التي تنبع من المعرفة الصحيحة لسيكولوجية النقد والناقد : ذلك امر معروف بان المعرفة التسامية السليمة للنفس البشرية تفود الانسان الى المستوى الاخلاقي بلا ريب .

علي زيعور

تمر عملية النقد في ثلاث مراحل اولها فهم القطعة وهو العمل الذاتي ، ثم تحليلها بحركة انسدادية متراصة ، وذلك هو العمل الموضوعي نوعا او الاجتماعي بكلمة أدق ، وتقوم المرحلة الاخيرة على تقييم البحث اي التمييز بين الفث والسمين وهو الصلة او العلاقة التي تقوم بين الناقد وموضوعه .

وفهم القطعة هو جمعها في وحدة ، اي اخذ الكثير والمتعدد في امر واحد بطرح شبكة المذهب والنظام عليها لالتقاطها والقبض عليها بالفكر والعقل . وطبيعي ان فهم الناقد للقطعة متميز عن فهم الفيزيائي للذرة مثلا ونظراته مختلفة كشرحه لها ايضا . يقول غوبلوان : « الشرح هو في معظم الاحيان معرفة الاسباب ، وسبب كلمة غامضة تجادل حولها النطقيون والماورائيون كثيرا ... » ( نظام العلوم ص ٣٣ ) وانه لمن الكلاسيكي معاكسة الفهم بالشرح باعتبارهما عمليتان تعتمدان على الذات والاخر ، فابصال ما في النفس لفهم خيانة الذات وتشويه لكيانها الديناميكي حسب قول الكثيرين من الفلاسفة . لكن هذه التعاكسية ليست ناجحة الى حد كبير اذ تفقد حال تطبيقها التي الصمت او الاحلام ، غير ان اعتبار الشرح والفهم كقطعتين اساسيتين في عملية النقد امر بديهي وبديل التناقض بينهما يقوم التعاون في التكامل المتبادل ...

لفهم النص فهما متعمقا لا غنى عن صلة وثيقة وصداقة بين الموضوع والواضح ، صلة قريبة تقوم على الوداد والاحترام . هذه الفضيلة الضرورية هي المحبة التي تجعلنا حسب قول ماكس شيلر نافذي النظر متبصرين بجلاء ، وان عدم وجود هذه العاطفة عند الناقد هي التي تجعله يتربص بالهفوات هادما ، يفتش عن الاخطاء فينفي ويسفه ويهاجم .

ان المعرفة الصحيحة لليوب تنتج هي بدورها من التعاطف الذي نشأ عند الناقد ، فالقطعة المروضة للنقد - كائن خاص له مزاجه عيوبة - تقسم الناقد وتشرحه ، وكشيء واقعي لا بد من ان تحترم وتحب . لذا تتطلب فضيلة التعاطف هذه صفات في الناقد ممتازة وغنى داخليا وثروة ثقافية اخلاقية مع ايمان بالقيم والقيمير ، مما يجعل الحكم النقدي او التقييم قريبا من القاعدة المروضة - بل يصبح ذوقه هو القيم ذاتها بلا انفصال او تباعد .

وفي العودة الى علاقة الفهم بالشرح وارتباطهما المتين ، نرى هذا التفاعل بوضوح امام فلسفة افلاطون او عمانوئيل كانط مثلا ، اذ ما زالت تفهم وتفسر في كل عصر دون الوصول الى الشكل النهائي ، فالأثر الانساني كائن غني لا يجف نيره . وامام القطعة الواحدة يختلف ناقدان ولا يعطيان في كل المرات نفس الشرح والقيم اذ انهما ليسا امام شيء موضوعي ، والموضوعية في النقد كعلم انساني ضعيف وعسيرة ان لم تكن مستحيلة ، حتى اقترح البعض استبدالها بالتحيز المعقول ، فهل يستطيع الناقد مثلا ان يتخلى عن كونه ابن بيته وطبقته